

يقظة الضمير الإنساني والوطني

١٨ من شعبان ١٤٣٦ هـ الموافق ٥ من يونيو ٢٠١٥ م

أولاً: العناصر:-

- ١- الإسلام وإيقاظ الضمير الإنساني.
- ٢- محاسبة النفس إحياء للضمائر.
- ٣- نماذج مشرقة في يقظة الضمير الإنساني والوطني.
- ٤- الطريق إلى نهضة مصر بالضمائر الحية.

ثانياً: الأدلة.

الأدلة من القرآن الكريم.

١- قال تعالى: { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } [الانفطار: ١٠-١٢].

٢- وقال تعالى: { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } [الإسراء: ١٣-١٤].

٣- وقال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِمْ } [المجادلة: ٧].

٤- وقال تعالى: { يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

٥- وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [الحشر: ١٨].

٦- وقال تعالى: { وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } [يوسف: ٢٣].

٧- وقال تعالى: { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ } [السجدة: ١٦].

١- عن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): {إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ} (صحيح مسلم).

٢- وعن النعمان بن بشير (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : "....أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ " (رواه البخاري) .

٣- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا الْإِيمَانُ ؟ قَالَ : الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَلِقَائِهِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ . قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا الْإِسْلَامُ ؟ قَالَ : الْإِسْلَامُ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ . قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا الْإِحْسَانُ ؟ قَالَ : الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ : فَإِنَّهُ يَرَاكَ . (رواه البخاري) .

٤- وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : " إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا " (رواه البخاري) .

ثالثًا : الموضوع :

لقد اهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بالضمير الإنساني وأعلى مكانته في نفوس المسلمين؛ لأنه هو المحرك الأساسي لجميع توجهاته وشتى واجباته ، فهو يؤدي إلى سلامة القلب من العلل ، وثبات وجهته على الخير ، وبالتالي يوصل إلى توفيق الله ورضوانه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): {إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ} (صحيح مسلم).

إن الضمير الإنساني محله القلب الذي يصلح الجسد والروح والعمل ، وبفساده يفسد كل شيء ، وهذا ما وضعه النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث قال : "....أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ " (رواه البخاري) .

فالقلب الذي دل عليه الحديث ليس القلب الذي في صدر الإنسان والذي مهمته ضخ الدم إلى جميع أنحاء الجسم ، بل هو الضمير اليقظ ، والرقيب الداخلي الذي يوجه

الإنسان دينياً وتربوياً وأخلاقياً وسلوكياً ، فإذا أقدم الإنسان على عملٍ مخالفٍ يشعُر
بالندم والألم والرفض الداخلي ، وإذا كان هذا العمل موافقاً يشعُر بالراحة والسعادة
والطمأنينة . وصدق الشاعر حيث قال :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيبٌ
ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ولا أن ما يخفى عليه يغيبُ
ألم تر أن اليوم أسرعُ ذاهبٍ وأن غداً للناظرين قريبُ

ولا يكون القلب سليماً والضمير يقظاً إلا إذا تربى المسلم على الإيمان الصادق ،
الذي يشعر به الإنسان أن الله معه ، يسمعه ويراها ، ويعلم ما يفعله ، ويحاسبه يوم القيامة على
ما قدم ، فالإنسان عندما يعتقد أن الله معه يجتهد في مراقبته تعالى ، ويستحضر عظمته
سبحانه في كل أقواله وأعماله ، وهذا ما أشار إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) في حديث
جبريل (عليه السلام) عندما سُئِلَ عن الإحسان الذي هو أعلى درجات الدين واليقين ،
قال: " الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ " (رواه البخاري) .

من هنا عني الإسلام عناية فائقة بتربية المسلم على يقظة الضمير والخوف من الله
ومراقبته وطلب رضاه ، حتى إذا غابت رقابة البشر وهمت نفسه بالحرام والإفساد
في الأرض تحرك ضميره الحي اليقظ ؛ فيصده عن كل ذلك ويذكره بأن هناك من لا يغفل
ولا ينام ، ويحكم بين عباده بالعدل ويقتص لمن أساء وقصر ، قال سبحانه: { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ
لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } [الانفطار: ١٠-١٢] .. وقال تعالى: { وَكُلَّ
إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَشْهُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى
بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } [الإسراء: ١٣-١٤] .

بهذا الضمير الإنساني يستطيع الإنسان تأدية العبادات على الوجه الأكمل ، فتجد
صاحبه محافظاً على العبادات والطاعات والذكر وقراءة القرآن ، فإذا لم يكن موصولاً بالله
فإنه سيأتي يومٌ ويموت ضمير هذا الإنسان ، وعندما يموت الضمير يختل الميزان وتضطرب
الحياة ، ولا يستطيع صاحبه أن يعبد الله حق عبادته ، لأنه لا يبتغي من ورائها ثواباً ولا
يخاف عقاباً ، ولا يخشى من مساءلة يوم القيامة .

فبالضمير الحي اليقظ ينضبط السلوك والتصرفات ، وتحفظ الحقوق وتؤدي
الواجبات ؛ حتى وإن غابت رقابة البشر ، فتقوى الله ومراقبته والخوف منه والاستعداد
للقائه أقوى في نفس المسلم من كل شيء ، فصاحب الضمير الحي يدرك أن الله معه
حيث كان في السفر أو الحضر ، في الخلوة أو في الجلوة ، لا يخفى عليه خافية ، ولا يغيب
عنه سر ولا علانية ، قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا

يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيَّنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ { [المجادلة:٧]. وغير ذلك من عشرات الآيات التي تربي الضمائر على محاسبة النفس والاستعداد للقاء الحق سبحانه.

وصاحب الضمير الحي يجيد عمله ويؤدى واجبه ، سواء رآه الناس أم لم يروه ، وسواء أننوا عليه أم لا ، فإنه يحسن عمله على أية حال ، وبالتالي فالإقبال على العمل والإحسان فيه يجب أن يكون بدوافع إيمانية وضمير يقظ ، استرضاء لله ، وإن جحد الخلق، يقول تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٩، ٨٨] ، ومن ثم فإن إحياء الضمائر يأتي من محاسبة النفس ومراقبتها لله تعالى ، والخوف منه عز وجل .

ولقد ضرب القرآن الكريم لنا مثلا بيوسفَ - عليه السلام - في الطهر والعفاف حين حَزَّهُ ضَمِيرُهُ عَنِ الانْجِرَافِ وَرَاءَ الْهَوَى ، إذ أقبلت الدنيا بمتعها في شخصية امرأة العزيز تراوده عن نفسه فأبى ، ولاذ بدينه قائلا: { مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } . لقد أحس بمراقبة الله عليه ، وأنه يراه في هذا المكان المغلق ، فاعتصم بدينه، وانتصر صوت الإيمان في قلبه على صوت الغريزة في بشريته ، فكانت يقظة الضمير أقوى حارس عليه .

إن المؤمن القوي في عقيدته ، القوي في يقظة ضميره ، القوي في محاسبة نفسه ، هو السعيد في الدنيا ، والفائز في الآخرة برضوان الله ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرُوا نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: ١٨] .

ولقد ربي النبي (صلى الله عليه وسلم) أتباعه على يقظة الضمير ومراقبة الله عز وجل ، فيأتي رجلان من المسلمين إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) يختصمان في قطعة أرض ليس لأحدٍ منهما بينة وكل واحدٍ منهما يدعي أنها له وقد ارتفعت أصواتهما ، فقال: " إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا يَقُولُهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا" (رواه البخاري) ، عند ذلك تنازل كل واحدٍ منهما عن دعواه ؛ لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد حرك في نفوسهما الإيمان ، وارتفع بهما إلى مستوى عالٍ من التربية الوجدانية وبناء الضمير والتهديب الخلقي ، فكانت هذه التربية وبناء الضمير حاجزاً لهما عن الظلم والحرام ، وهو الدافع إلى كل خير.

ومن النماذج التي أحيا الإيمان في قلوبها يقظة الضمير ما ورد عن عبد أمّنه سيده على الغنم ، فضرب المثل الأعلى في العفة والنقاء ويقظة الضمير الإيمان ، يقول عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى مكة ، فعرضنا في بعض الطريق ، فأنحدر بنا راعٍ من الجبل ، فقال له عمر (رضي الله عنه) : يا راعي ، بعني شاة من هذه الغنم ، فقال : إني مملوك وهذه الغنم لسيدي ، فقال عمر -اختباراً له- قل لسيدك أكلها الذئب ، فقال الراعي: إذا قلت لسيدي هذا ؟ فماذا أقول لربي يوم القيامة ؟ فبكى عمر بن الخطاب ، واشترى هذا العبد من سيده واعتقه ، وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة ، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

ونحن نسير في ركب أصحاب الضمائر الحية الذي خلد الزمن ذكراهم ، نذكر تلك القصة التي سجلها التاريخ صورة رائعة فريدة مؤثرة ، تبين مدى يقظة الضمير الحي والحس الإيمان ، فقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يعس المدينة ليلاً ، ثم جلس تحت جدار لسمع امرأة تقول لابنتها : قومي إلى ذلك اللبن فامدقيه بالماء ، فقالت لها: يا أمه أو ما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم ؟ قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر مناديه فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء ، فقالت لها: يا بنية قومي إلى ذلك اللبن فامدقيه بالماء ، فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر ، فقالت الصبية لأُمها: يا أمته والله ما كنت لأطيعه في المأ وأعصيه في الخلاء ، كل ذلك وأمير المؤمنين يستمع ، وقد سره أمانة الفتاة ، وضميرها الحي ، فاختارها زوجة لأعز أولاده ، وكان من ذريتها الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - (صفة الصفوة) .

وهاهو الإمام علي (رضي الله عنه) يفقد درعه ويجدها عند يهودي ، فأقبل إلى القاضي شريح يختصم إليه ، فقال علي للقاضي: هذه الدرع درعي ، ولم أبع ولم أهب ، فقال القاضي شريح لليهودي : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ، فقال اليهودي : الدرع درعي ، فالتفت القاضي شريح إلى علي (رضي الله عنه) وقال : يا أمير المؤمنين ألك بينة ؟ فابتسم علي وقال : أصاب شريح : مالي بينة ، فقضى بالدرع لليهودي ، فأخذها ومشى خطوات ثم رجع ، فقال : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء ، أمير المؤمنين يخاصمني إلى قاضيه فيقضي عليه ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ، الدرع والله درعك ، سقطت منك . فقال علي: أما إذا أسلمت فهي هدية مني .

إن القاضي عندما حكم على الخليفة كان ضميره هو الذي يحكم ، لأنه يحكم بالحق ، ويسير على المنهج السليم ، ويلتزم بما رسم الله في كتابه ، وما حدده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في منهجه ، من باب : (البينة على من ادعى ، واليمين على من

أنكر). فلما رأى اليهودي تلك اليقظة ، وعرف أن الهوى ليس له على نفس أحدهما سلطان أعلن إسلامه ودخل في زمرة الصالحين ، لأن الضمير هنا كان المسيطر على الحاكم وعلى القاضي ، إنها ضمائر متصلة بالله (عز وجل).

إن الأمة في أمس الحاجة إلى أصحاب الضمائر الحية والسرائر النقية حتى تنهض وترتقي وتسد ، فإن سعادة المجتمع ورقيه في يقظة ضمير أبنائه وتقوية الوازع الديني في نفوسهم ، لأنه هو المهيمن على شؤونهم ، فإذا مات الضمير الإنساني والوطني نتج عن ذلك فساد في الأخلاق والمعاملات ، فما الذي يمنع الموظف أن يرتشي؟! والكاتب أن يزور؟! والجندي أن يخل في عمله؟! والطبيب أن يهمل في علاج مريضه؟! والمعلم أن يقصر في واجبه؟! والقاضي أن يظلم في حكمه؟! والتاجر أن يغش ويحتكر في تجارته؟! ... وهكذا في كثير من جوانب الحياة.

إن الذي يمنع كل ذلك هو الضمير الإيماني والوطني اليقظ الذي يهذب الأخلاق ، ويقوم اعوجاج السلوك ، ويكون سبباً في إصلاح النيات ، وقبول الأعمال ، وكثرة العبادات والطاعات ، بل إنه يورث الخوف من الله والخشية من عذابه وسخطه ، قال تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفِقُونَ} [السجدة: ١٦].

على أن الضمير الوطني اليقظ هو الذي يبني ولا يهدم ، ويعمر ولا يخرب ، ويسعى إلى صناعة الحياة لا إلى صناعة الموت.

إذا مات الضمير فإن الحياة تفسد ، ذلك أن الضمير الحي سر الحياة ، من غيره تموت الشعوب والأوطان ، وتنتهي الأمم والحضارات ، وتزول القيم والمبادئ ، ويصبح كل شيء مباحاً : كلام الزور ، والخيانة ، والسرقه ، والمال الحرام ، والقتل ، والسكوت عن الظلم والظالمين ، وتزييف الحقائق وغيرها من موبقات الحياة.

لذا وجب علينا جميعاً أن نحیی ضمائرنا بتقوى الله ومراقبته ، والنظر إلى مصالح مجتمعنا ووطننا ، ولنحذر أن تكون أجسادنا بلا ضمائر حية متصلة بالحق والخير والمعروف ، حتى تنزل علينا رحمة الله ومغفرته.